

فنّ الترسل في الأدب الجزائري الحديث

The Art of Messaging in Modern Algerian Literature

د. سليمة صلاح¹، د. محمد نمرة²¹ جامعة حسيبة بن بوعلي - الشّلف (الجزائر)، s.slal@univ-chlef.dz² جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة (الجزائر)، m.nemra@univ-dbkkm.dz

تاريخ الاستلام: 2024-07-29 تاريخ القبول: 2024-09-24 تاريخ النشر: 2025-12-14

ملخص البحث

طرحنا في هذا المقال موضوع فنّ الترسل في الأدب الجزائري الحديث، المهدف منه التعرف على هذا الفن وعلى مختلف أعلامه، وتتبع مساره وكذا الوقوف على مراحله التي تختلف باختلاف ظروف الجزائر خلال الفترة الحديثة الممتدة من عهد الأمير عبد القادر إلى سنة 1962. وقفنا في كل ذلك على نماذج من نصوصه، درسناها وحللناها من حيث اللغة و الأسلوب والمحتوى محاولين معرفة مدى نقل هذا الفن لوضع الجزائر خلال تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية : فنّ الترسل، الرسالة، الأدب الجزائري الحديث، الرسائل الديوانية، الرسائل الإخوانية، الرسائل الأدبية.

Abstract:

In this article, we raised the topic of the art of transmission in modern Algerian literature. The aim is to get to know this art and its various figures, trace its path, and identify its stages, which vary depending on the circumstances of Algeria during the modern period extending from the reign of Emir Abdelkader to the year 1962. In all of this, we looked at examples of his texts, which we studied and analyzed in terms of language, style, and content, trying to find out the extent to which this art conveyed the situation in Algeria during that period.

د. سليمة صلاح^{*}

Keywords: The art of sending, the message, modern Algerian literature, Diwani letters, Brotherhood letters, literary letters.

1. مقدمة:

عرف الجزائري الحديث فنون نثرية عدّة، اختلفت شكلاً ولغةً وأسلوباً، غير أن ما يجمعها هو اعتبارها سجلاً لوضع الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي منذ عهد الأمير عبد القادر إلى 1962. ومن بين تلك الفنون النثرية نجد فن الترسل الذي يُعد هو الآخر وثيقة تاريخية تنقل لنا ظروف الجزائر في تلك الفترة، فكيف تم ذلك على مستوى نصوص الرسائل، سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون أم اللغة والأسلوب؟ وكيف ساهمت ظروف الاحتلال في توجيه مسار هذا الفن ومن هم أبرز أعلامه وفي أي من أنواعه كتبوا؟

2. تعريف فن الترسل:

1.2. لغة:

ورد في لسان العرب مادة أن الترسل من الإرسال والتوجيه، والاسم الرسالة¹. "وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يُرسل به من بُعد أو غاب، فاشتق له اسم الترسل"²، ومن ثمة يمكن القول إن الرسالة بمعناها اللغوي تستعمل لتسهيل قضاء الحاجات عند بعد المسافة والغياب، كما يمكن القول إن الترسل هو عملية تواصلية تتطلب هي الأخرى مراسلاً ومستقبلاً وموضوعاً أو رسالة يُطلب تبليغها.

2.2. اصطلاحاً:

يرى قيس كاظم الجنابي أن الترسل: "نوع من المحادثة المكتوبة التي توسّع إن جاز التعبير حركة التحدث في موضوعات مختلفة"³، تُكتب الرسالة من المنشئ. إلى غيره لإخباره عن موضوع ما. تطور نوع من المحادثة المكتوبة وشاع مع مرور الزمن ليصبح فناً نثرياً له ضوابطه. على هذا الأساس يمكن القول بأن الترسل هو فن نثري عرفه الأدب العربي قديماً، غير أنه لم ينتشر على نطاق واسع لقلّة وسائل الكتابة باعتباره فناً يستدعي ذلك، ثم بدأ يزدهر منذ عصر التدوين واتساع رقعة الخلافة

الإسلامية، فأصبح فنا قائما بذاته، يختلف عن باقي فنون الأدب والنثر، له قواعد وأسس خاصة تتعلق بالشكل والمضمون والأسلوب. يستدعي هذا الفن ثلاثة أركان أساسية هي: المرسل أو الكاتب/الرسالة/المتلقي. للرسالة هدف إبلاغي لا يتحقق بتوفر مجموعة شروط نحو احترام الخطوات المنهجية المتعارف عليها ومراعاة مكانة المرسل إليه الاجتماعية والعلمية وكذا طبيعة العلاقة بينه وبين المرسل، سلامة اللغة والعناية بالأسلوب ووضوحه والملاءمة بينه وبين الموضوع، وضوح الخط وجماله⁴ ومراعاة الفواصل كما يشترط في المرسل المعرفة والثقافة وتقدم الفكر والعقل والأدب والمروءة والدين⁵ خاصة في الرسائل التي تهتم بالقضايا العامة وبشؤون الدولة.

3. فن الرسالة عند العرب:

عرف العرب الرسالة منذ العهد النبوي، إذ خصّصت لتدوين القرآن الكريم كما اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم كوسيلة لنشر الإسلام⁶، وزادت الحاجة إليها في العهد الراشدي بسبب اتساع الدولة الإسلامية، إذ كان الفاتحون في حاجة إلى وسيلة تواصل لإطلاع الخليفة على كل المستجدات وعلى أحوالهم، وكان هو في حاجة إلى إبلاغهم بالأوامر والتعليمات. أما في العهد الأموي فقد أقام معاوية بن أبي سفيان ديوانا خاصا بالرسائل الرسمية سماه "ديوان الرسائل" يعمل به كُتّاب اختيروا لفصاحتهم وتمكنهم من ناصية اللغة وصناعة بيانها، لكي يكتبوا الرسائل على لسان الخليفة أو الوالي، الذي يقوم بإملائها عليهم، ثم أصبح بعد ذلك الكاتب هو الذي يكتبها بالنيابة عنه. زادت الحاجة إليها في العهد العباسي فنشطت حركتها بعد استقرار الدولة الإسلامية، وكثرة ولائها في مختلف البقاع العربية وغير العربية، تلقت الكتابة في ديوان الرسائل العناية والاهتمام من كل جانب، لأن رسائل الدولة ذات البال، إنما كانت تصدر من هذا الديوان وترد إليه، فقد تولاه فحول البيان، وأعلام البلاغة وحذاق الأدب⁷ الذين يبرعون في صناعة الكتابة ويتفنون في اللغة ويتقنون أسلوبها.

4. أنواع الرسائل في الأدب الجزائري الحديث وأهم أعلامها:

1.4. الرسائل الديوانية: تعرف أيضا بالرسائل الرسمية، كانت في القديم تصدر من ديوان الرسائل في شأن من شؤون الدولة⁸؛ أي الأمور الإدارية وأمور الحكم والحرب والسلم والعلاقات الخارجية، واهتمت قديما بشؤون الولاية وولاية العهد، البيعة، الفتوحات، الأخبار، الحج... منها رسائل تولية المناصب والعزل والتوجيهات والتعليمات الإدارية، وكذا رسائل الجهاد والحرب. كانت هذه الرسائل قديما خالية

في أول أمرها "من المبالغات والخيال الخصب، فلما افتق الكتاب في أساليبها واستبقوا في تجويدها لعب الخيال دوره، فتزينت الرسائل بالمحسنات البديعية، من لفظية ومعنوية، وأطنبوا حيث يجب البسط والتفصيل، وأوجزوا إذا اقتضى المقام"⁹.

نذكر من بين الشخصيات الجزائرية التي كتبت هذا النوع من الرسائل الأمير عبد القادر في رسائل الحرب والسلم بينه وبين القادة الفرنسيين، خلال الاحتلال الفرنسي، حيث تضمنت إعلان الموافقة على هدنة أو رفضها، أو إعلان الحرب، وجّه بعض من رسائل الحرب إلى جيشه، يحثه فيها على القتال ويزيّن له الجهاد في سبيل الله، و يذكره بما يفوز به الشهيد من جنات النعيم بعد التضحية بروحه في سبيل نصره كلمة الله، كما تتضمن آيات وأحاديث نبوية تحث على ذلك، وتذكر المجاهدين بالثواب الذي ينتظرهم. كما نجد أيضا زعيم المقاومة الشعبية في الشرق الجزائري أحمد باي الذي كتب رسائل ديوانية إلى الباب العالي، يستنجد فيها بتركيا عند بداية الاحتلال الفرنسي. يقول في إحدى رسائله السياسية: "...إن سبب عداوة الفرنسيين لنا هو أننا قرّرنا عدم تسليمهم أمر التصرف بالدين الإسلامي، وعليه فقد اشتدت عداوتهم وبغضائهم، وأثناءها كانوا يأملون أن يخذلونا تحت طاعتهم"¹⁰، فموضوع الرسالة لا يتحمل المماثلة والإطالة والبحث عن فنية وجمالية اللغة، بل كل ما هو مطلوب إيصال الفكرة في قالب لغوي بسيط سهل الفهم سليم فصيح. ويقول أيضا: "بادروا بإمداد أهل الإيمان بالمساعدة وبنصرة أمة الإسلام، وعندما يعاتبكم الله يوم الحشر وتُسألون عن ضياع هذه الولاية فماذا سيكون جوابكم؟"¹¹؛ إذ تبدو قدرته على الإقناع وإقامة الحجة واضحة وهي مستنبطة من تعاليم الدين الإسلامي والنص القرآني. أما خلال العهد الإصلاحي فنجد رسائل كثيرة لزعماء الإصلاح، ومنهم: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، تناولت قضايا إدارية رسمية، تخص الشعب الجزائري نحو رؤية هلال رمضان، وشرح مبادئ وأهداف جمعية العلماء المسلمين.

2.4. الرسائل الأدبية: يطرح فيها الكاتب قضايا عامة مختلفة، يناقشها ويعطي رأيه كما يعرض آراء غيره ويعلق عليها، "يكتبها البلغاء، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع أو الفكر و الأدب، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق، أو يكتبونها في الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ونحو ذلك مما يتجلى في السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص"¹²، تُكتب بأسلوب أدبي رفيع يراعى فيه الجمال الفني والمتعة الأدبية لكن دون مبالغة، لهذا

تُعدّ تعبيرا "عن ذوق الكاتب وثقافته وخزينه اللغوي ومزايه الخاصة في التعبير وفي الفهم"¹³. يمكن القول إن هذا النوع من الرسائل هو بداية لفن المقال الأدبي وقد يطول بعضها ليصبح كتابا¹⁴. نذكر من بين الذين كتبوا الرسائل الأدبية في الجزائر الأمير عبد القادر في رسالته (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، نشرها ابنه سنة 1271هـ، أرسلها الأمير "إلى المجمع العلمي الفرنسي، الذي استن سنة انتقاء أعضاء مراسلين يفيد في آراءهم وخبرتهم ما يضيفه إلى المعرفة الإنسانية مساهمة منه في خدمة الحضارة والرقي العقلي والفني"¹⁵.

نجد أيضا (رسالة الضب) للبشير الإبراهيمي، هي رسالة أدبية طريفة كتبها إلى (أحمد قصيبة)، تتضمن معلومات مختلفة عن حيوان الضب إذ قام بوصفه وذكر خصائصه، وكان هدفها تعليميا فقد اتخذ من هذا الحيوان "مطية لبث معلوماته الأدبية واللغوية، والعلمية والنحوية والطبية أيضا"¹⁶، كما تحدث فيها عن قضايا اجتماعية مختلفة وأعطى رأيه حولها، يقول عنها عبد الملك مرتاض: "وهي من حيث الموضوع الذي عالجت تعتبر الأولى من نوعها في الأدب الجزائري الحديث، وربما كانت الأخيرة فيه، فإلى يومنا هذا لم يظهر لون أدبي من هذا الجنس، مما يدل على عزوف الكتاب عن هذا الضرب من الكتابة، التي كانت لدى الإبراهيمي في رسالة الضب، استمرار واضحا لسيرة القدماء وذابهم شكلا ومضمونا"¹⁷.

كتب محمد الصالح رمضان رسالة أدبية بعنوان (تحكيم حجاج لزملائه في مناظرة بيني وبينه) وهي رسالة مسجوعة الأسلوب، عالية اللغة، تقع في صفحتين اثنتين¹⁸ تحدث فيها عن قضية لغوية نحوية، حيث أورد فيها مجموعة من أقوال وآراء أعلام النحو واللغة القدماء، نحو: سيويو، الكسائي، الفراء، ابن السكيت، صاحب بن عباد... يتميز نصها بأسلوب ساخر تهكمي فكاهي يهدف به صاحبها إلى السخرية من غريمه في المناظرة، تشبه في بعض الأمور رسالة الترييع والتدوير للجاحظ¹⁹.

3.4. الرسائل الإخوانية: هي المكاتبات التي تظهر عواطف الكاتب ومشاعره، "يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض، في تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعاة أو عتاب... وهي أوسع ميدانا وأكثر افتنانا وأعذب بيانا، وأعلى منزلة، وأسمى قدرا وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته"²⁰. يتصل هذا النوع من الرسائل اتصالا مباشرا بطبيعة العلاقات الاجتماعية وما يرافقها من عواطف خاصة، وهو ما يجسد اختلافها عن الرسائل الديوانية، التي لم تكن في بداية أمرها تهتم بالجانب الفني، وتأنيق اللغة

عكس الإخوانية التي أظهر فيها كتابها ذوقاً أدبياً وفنياً وخيالاً خصباً ولغة راقية، بل وتنافسوا في كل ذلك لإظهار براعتهم وتمكّنهم من إثراء الذوق الأدبي و المتعة الفنية. تناول هذا النوع من الرسائل موضوعات عدة تتصل كلها بالعلاقات الإنسانية والاجتماعية نحو الرغبة في التلاقي، تبادل الهدايا، الشكر على معروف أو خير، الاعتذار، أو المشاركة في إحدى المناسبات، التهنية، التعزية، الرثاء المدح، الوصايا، الدعوة إلى مناسبة ما، الرجاء، الحب، الاستعطاف... من بين أهم الشخصيات الجزائرية التي كتبت هذا النوع من الرسائل نجد مثلاً: البشير الإبراهيمي في رسالته (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة) التي كتبها عندما علّم بوفاة صديقه ورفيقه في درب الإصلاح (عبد الحميد بن باديس) سنة 1940 بقسنطينة، وصله الخبر وهو بآفلو في منفاه، فأراد أن يحضر الدفن، غير أن السلطات الفرنسية لم تسمح له بذلك، فاستعاض عن الذهاب برسائل كتبها يعزي فيها إخوانه ورفقاءه إثر مصابهم، تعد هذه الرسالة واحدة منها²¹. تعتبر الرسالة رثاء وتأيينا لعبد الحميد بن باديس، حيث جاءت مشحونة بالعواطف الحزينة، مزينة بآيات الاحترام والحب والوفاء، كما تعد من جهة أخرى تعزية لكافة رجال الإصلاح والأدب والفكر الجزائريين وخاصة لرجال جمعية العلماء المسلمين.

كتب عثمان خوجة رسالة إخوانية إلى شيخه (سيدي علي بن محمد) من لندن وفيها "نلمس جزالة في الأسلوب وهو يعبر له عن اعترافه بالجميل، ويظهر وفاءه وتعلقه به وشوقه إليه"²². تعد هذه الرسالة رسالة تقدير واحترام وحب ومودة، وكذا اعتذار وتوضيح موقف ما، حدث لضرب العلاقة بين الطرفين.

5. اتجاهات فن الرسالة في الجزائر خلال العصر الحديث:

حدّد عبد الله ركيبي اتجاهين اثنين للرسالة في الجزائر بناء على أسلوب ولغة كتابتها:

1.5. الاتجاه الأول: هو الاتجاه الذي يعتمد فيه صاحبه إلى الجمال الأدبي عمداً، فيبحث دائماً على اللغة الفنية وعن أسلوب البهرجة، وعن كل ما يدل على سعة ثقافة الكاتب وتمكنه من ناصية اللغة والقدرة على استيعاب مفرداتها وأساليبها العتيقة بجزالتها ورسالتها وبديعها وبيائها، كما يبدو المترسّل في هذا الاتجاه متأثراً بطريقة القدامى مع المحافظة على شخصيته وخصوصيته.

يمثل هذا الاتجاه (حمدان خوجة) له رسالة كتبها إلى شيخه سيدي علي بن محمد، من لندن فيها اعتراف بالجميل، ووفاء وشوق ومدح وإشادة بالمرسل إليه، كما تضمنت قصيدة من إنشائه.

كتبها "بسبب وشاية ارتكبتها خصومه ضده فأراد أن يرد عليها ليصلح ما بينه وبين أستاذه"²³ اعتذر له فيها عن صمته وعجزه وعدم قدرته على البيان، ذكر الواشي في نهاية الرسالة باسم "ابن النفار" وحذّر شيخه منه ووصفه بأنه أعدى الأعداء وشر الأشرار يقول: "...وواجهك سعد السعد إذ توجك أنفس هالاته، فكت يمين اليمن والبركة وقدوة السكون و الحركة، تنثال لديك طرائق المعارف فتقتبس، وتنتمي إليك معاهد المعالي فلا ترام... حامل لواء الإمارة من العلم المكنون، تاج الملة الخفيفة ومجدّد تاجها ونتيجة الهمم العالية ومادة نتاجها"²⁴.

من بين خصائصها البدء بالحمدلة والصلعمة، كثرة السجع، الموازنة بين الجمل، التناسق الصوتي للكلمات، المدح والإشادة بالمرسل إليه، الاستشهاد بالشعر، العناية بالبديع والبيان، مما يدل على قدرته ومعرفته الواسعة بالبلاغة العربية وأساليبها.

يمكن أن ندرج ضمن هذا الاتجاه رسائل إبراهيمي، خاصة ما ذكر منها سابقا (مناجاة مبتورة/رسالة الضب) فقد كانت لغته رفيعة عالية وأسلوبه فني راق يذكرنا بالبيان العربي في أصلاته وجماله وروعته، ويذكرنا بالبديع العربي بعذوبته وبجرسه الذي تستعذبه الآذان، ولعل هذا ما جعل مرتاض يقول عن الأولى: "فإذا هي رسالة تعدو من أجمل ما كتبت في الأدب العربي الحديث"²⁵. فما كتبه يدل على مكانته في الأدب، وسعة اطلاعه وتأثره بأساليب القدماء ولغتهم ويقول عن الثانية: "وهي من حيث الموضوع الذي عالجت تعتبر الأولى من نوعها في الأدب الجزائري الحديث، وربما كانت الأخيرة فيه... فيلإ يومنا هذا لم يظهر لون أدبي من هذا الجنس، مما يدل على عزوف الكتاب عن هذا الضرب من الكتابة، التي كانت لدى إبراهيمي في رسالة الضب استمراراً واضحاً لسيرة القدماء ودأبهم شكلاً ومضموناً"²⁶. إذ يبدو تأثره بالقدماء واضحاً كما ذكر مرتاض، خاصة من حيث اللغة والأسلوب وطرافة الطرح وكثافة المعلومات، يقول: "إن هذه الرسالة تذكرنا ببعض رسائل الجاحظ، والبديع الهمداني، في بعض ما فيها من معلومات عامة ولغة متينة، وأسلوب أدبي عال"²⁷.

غير أن سير إبراهيمي على نهج لغة القدماء وأساليبهم وكذا كتابته نوع الرسالة الأدبية الطريفة العلمية التعليمية كرسالة الضب على طريقتهم، لا تجعل منه كاتباً باهت الشخصية بعيداً عن عصره، أو تذوب شخصيته في محاكاة القدماء، بل كانت شخصيته الأدبية ومعارفه وعصره بارزة، في مقابل ذلك كانت جزالة وريانة لغة القدماء واضحة في كتاباته، يقول مرتاض عن أسلوبه في رسالة

الضب: "...إن إبراهيمي لم يكن أسير الأدب العربي القديم، يقلده حرفيا، ويلفظه كما ازدرده ويحاكيه بدون تصرف، ولا إعمال خيال ولا إبراز شخصية، بل إنه حاول أن يضيف معلومات جديدة"²⁸. يبدو هذا الاتجاه واضحا في رسائل إبراهيمي، وهذه بعض النماذج:

1.1.5. نموذج مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة:

"سلام يتنفس عنه الأقاح بأزهاره وإيراقه، ويتبسّم عنه الصباح بنوره وإشراقه... وثاء يتوهج به من غير الشعر عبيره... وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان..."²⁹. يتحدث بعد السلام عن فضله على العلم، وتأسيسه لمدارسه وأفعاله الحسان، كما يحيي أباه الذي رباه، وأحسن تربيته وإخوانه، ثم يخاطب صاحبه ابن باديس بالتمني قائلا: "سيرا على اسم الله، في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسيّة وضّاح، وتحلّلا الأحياء، فستجدان لاسم من تنجعانه ذكرا ذائعا في الأفواه، وثناء شائعا على الشفاه..."³⁰، يخاطب من جهة أخرى القبر ويوصيه خيرا بمن فيه، ويناجيه بحزنه.

2.1.5. نموذج من رسالة الضب: يقول: "فقد كان هذا الحيوان محظوظا عند العرب دون كثير من الحيوانات الجزرية فدرسوا ظاهرة وباطنه، وعرفوا طباعه فأكثروا فيه القول حتى بلغ هيامهم به، وتمنطقهم بذكره أن نخلوه بعض الخصائص الإنسانيّة... وليس لأمة من الأمم ما لهم في وصف الحيوانات الضارية وإن أمم الحضارة على وفرة أدواتها لم تدرس الضواري إلا بعد أن دجّنتها..."³¹، تتميز رسالة الضب من حيث مضمونها بما يلي:

- تضمنت أمثالا ذكر فيها الضب، اعتمدها ابن جني للتمثيل على قضايا لغوية كالجر بالمجاورة وبالتبعية، غير أن إبراهيمي أنكر هذا المذهب، لأنه لا يتفق مع العربية الشائعة.
- من الناحية الطبية ذكر إبراهيمي أحكاما فاسدة، ومع ذلك أصبحت قاعدة كقولهم: "لا تأكل السمك وتشرب اللبن"، اتخذ منها النحاة حكما لفظيا، فأصبحت قاعدة طبية مع أنها من الطب بريئة، يقول: "أصبح الناس يتحامون الجمع بين اللبن والحوت، عن عقيدة قرّرها في نفوسهم هذا المثال، وإن كانت في المعد معدة ضعيفة، تتأثر في الجمع بين غذائين، فمحال أن تكون حجة على معد ابن آدم في علم أو علم الكروش... أما أنا وحياتك كما يقول الزاهري فإنني ما رأيت أصلح لمعدتين من الجمع بين السمك واللبن..."³².

- الإمام بحياة الضب (صفاته، أحواله، جنسه وما يتصل به، بيضه واعتماده في الاستطباب عند العرب، تسمية العرب بأسماء الحيوانات وسبب ذلك).
 - ختم الإبراهيمي الرسالة بشكرٍ لقصصية واعتذارٍ لأنه لم يكتبها في الظروف الملائمة، ثم حدد المدة التي استغرقها في كتابتها (ليلة واحدة).
 - ندرك من خلال محتوى الرسالة أن الإبراهيمي كثير المعلومات واسع الثقافة، متأثر بالقدماء في طبيعة وأسلوب الكتابة.
 - تصور الرسالة جانبا من حياته في المنفى (شكوى من قساوة الظروف مثل: تجريده من مكتبته، عزلته عن الناس، نأي الأصحاب...).
 - تشهد له الرسالة بقوة الحافظة وعلو مكانته في الأدب وسعة اطلاعه³³.
 - هدفها تعليمي، إذ اتخذ الإبراهيمي من موضوعها الرئيسي (حيوان الضب) مطية لبث معلوماته الأدبية واللغوية، والنحوية والطبية والتاريخية والثقافية...
 - الشخصية المعنية بها هي الشيخ أحمد قصصية (المرسل إليه) وهو صديق الإبراهيمي.
- 2.5. الاتجاه الثاني:** يعتمد فيه الكاتب إلى البساطة والوضوح، دون قصد إلى الجمال الأدبي، ولا عناية كبيرة بالصياغة الفنية، إذ تعتبر لغته سهلة بسيطة بعيدة عن أساليب البهرجة من سجع وبديع، ولا تكلف فيها ولا اجتهاد في تحصيل أساليب البيان المختلفة، إلا ما جاء من هذا كله عفو الخاطر، فالمهم في هذا الاتجاه هو الفكرة العميقة والمعنى الدقيق الذي يساهم في إبراز الموضوع من كافة جوانبه وتوضيحه وتقريبه للفهم.

يمثل هذا الاتجاه (الأمير عبد القادر) في رسائله التي كتبها للجندال بيعجو وغيره من الحكام الفرنسيين، يقول عنه الركيبي: "فهو في هذه الرسائل قد خطا بالنثر خطوة واسعة، حرّره فيها من الأسلوب العتيق ومن الركاقة والتكلف وجعل منه وسيلة للتعبير عن الأفكار الحديثة التي غزت الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة"³⁴.

ولا شك أن موضوع هذه الرسائل يفرض عليه خصائص معينة، يقول في إحداها ردا على فرنسا للصلح (الهدنة): "أما بعد: فقد وصلني كتابكم واحتطت به علما، فذكرتم أن دولة فرنسا أمرتكم بإجراء الصلح إن أمكن وإلا فاستعمال السيف، مع أن دولة فرنسا تعلم أني أشد الناس رغبة

في حصول العافية، وأشدّهم بغضا لسفك الدماء بدون موجب شرعي، وإنّما تعلم أنّي راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع... فإن ساعدت العناية الإلهية على إجراء هذا الأمر على يدكم فهو دليل على صفاء طويّتكم لعباد الله تعالى، وصدق خدمتكم للدولة والشعب معا"35.

ويقول في أخرى: "...ودولتكم تدعي أنّها أول دولة في العالم تُحبّ الإنصاف، وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به، ففعلها هذا يُكذّب دعواها ويُبطل مدعاها، وأنّتهم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاعتصاب، وتبذلون أنفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها"36. تبدو من خلال النموذجين خصائص الرسالة السياسية، والرسالة عموما عند الأمير عبد القادر التي يمكن إيجازها فيما يلي:

* من حيث المضمون:

- الدخول في الموضوع مباشرة، وعدم الإكثار من المقدمات.
- تُبرز تعلّقه بالسلم وكرهه للحرب وسفك الدماء، لأنّه يعي خطر الحروب وآثارها المدمرة.
- يبحث فرنسا على مراعاة العهود والمواثيق.
- تبرز من خلالها فروسيته وشجاعته وبسالته، إذ يبدي حبه للسلم في غير جبن أو تخاذل ويعلن استعدادة للمعركة رغم عُدّته الضعيفة وتفوّق أعدائه (عددا وعدة)، يُظهر الأمير شجاعة فائقة ويؤكّد بأنّه لا هو ولا جيشه يضعف أو يخاف.
- التأثير بالدين.
- حنكته في محاولة الإقناع.
- لا يخاف العدو، لأنّه يطالب بحق بلاده وشعبه في الحرية والكرامة، لذلك فهو لا يهرب قوة فرنسا، كما تبدو في رسائله الحماسة واضحة.

➤ تعبّر رسائله عن وقائع وأحداث تاريخية تساعد الباحث الأديب والمؤرخ على معرفة عصره، لذلك يقول عنها الركيبي: "تعتبر بحق رسائل الحرب والسلام، كما تعبّر عن ظهور الأدب السياسي في النثر الجزائري الحديث"³⁷.

* من حيث اللغة والأسلوب:

- الابتعاد عن التكلف والبهرجة وتنميق الكلام وزخرفة القول فهو "يكتب كما يتكلم تقريبا"³⁸ كما يقول عنه الركيبي إلا ما جاء منه عفو الخاطر.

- البساطة والوضوح إذ يستخدم ألفاظا وتراكيب بسيطة ومفهومة، تؤدي الغرض في وضوح ومرونة، فهو لا يجتهد في البحث عن الألفاظ الصعبة والغريبة.

أما بالنسبة لرسائله التعليمية العلمية (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) فتتنطبق عليها نفس الخصائص الفنية لرسائله السياسية لغة وأسلوبا، أما من حيث المحتوى فيبدو تأثره فيها بالدين واضحا، إضافة إلى سداجة بعض الأفكار وكذا سعة الثقافة والاطلاع، يقول محمد الطمار عن الرسالة: "ونلمس فيها أن عبد القادر واسع الاطلاع، وأن له أسلوبا واضحا يختلف عن أسلوب القرون الوسطى المسجع المتكلف المنمق بالبديعيات، وقد كان سائدا في عصره، لذا يعد الأمير عبد القادر واحدا من تلك الفئة المجيّدة، التي جفّت الطرق المتكلفة، وأُنِسَتْ إلى الأسلوب المرسل المطبوع، وأما أفكاره في هذه الرسالة فكثير منها قابل للمناقشة"³⁹.

ومن بين المواضيع التي أبدى فيها رأيه القابل للمناقشة هي قضية الضوء وانتقاله في الهواء، فيبدو على "الأمير عبد القادر هنا عدم تقبله للنظريات الحديثة، التي بنت ظواهر الكون على التجريب والحساب الرياضي، وكيف لا يؤمن بقوانين الطبيعة في الضوء، وهي لا تتنافى والإيمان بالله؟"⁴⁰.

أما فيما يتعلق بموقفه من تعليم المرأة الكتابة، فيقول الأمير: "وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان، وإذا قيل: القلم أحد اللسانين، بل الكتابة أبلغ من اللسان، فإن الإنسان يقدر على كتابة ما لا يقدر على أن يخاطب به غيره ويبلغ المقصود، حيث لا يمكن الكلام مشافهة، ولهذا نهى الشرع عن تعليم النساء الكتابة، لأن المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى فتكتب له، فتكون الكتابة سببا للفتنة"⁴¹.

يمكن أن نضيف إلى هذا الاتجاه رسائل أحمد باي السياسية إلى الباب العالي ، وكذا رسائل عبد الحميد بن باديس.

6. مراحل الرسالة الحديثة في الجزائر:

عرف فن الترسل والأدب الجزائري عموما تدهورا واضحا في عهد الانحطاط، أي عهد ما قبل الأمير عبد القادر، حيث تميز بركاكة الأسلوب وضعف اللغة وكذا بذل الجهد لإثقال الرسالة بمختلف أساليب البيان وبهرجتها بمختلف جواهر البديع، فكان الكاتب يتكلف في ذلك، وأيضا في تقليده الأعمى لأساليب القدماء دون بلوغ عظمتها اللغوية، كما كانت الموضوعات بعيدة عن حياة العصر وقضاياها، كل ما فيها اجترار لما كتبه القدماء فقط.

المرحلة الأولى: النصف الأول من القرن 19 عهد الأمير عبد القادر

عمل الأمير عبد القادر رائد الأدب الجزائري الحديث رفقة جماعة من الأدباء على انتشال الأدب عامة وفن الرسالة خاصة، من ذلك الضعف اللغوي والتكلف وركاكة الأسلوب التي عرفها عهد الانحطاط. خطأ هؤلاء بالنثر الجزائري خطوة جديدة نحو فصاحة وسلامة اللغة وروعة الأسلوب الأدبي، وكذا جمالية اللغة وفنيتها التي تمتع الذوق الأدبي وتأثر قارئها. من بين أهم من كتب الرسائل في هذا الفترة إضافة إلى الأمير عبد القادر نذكر: حمدان خوجة، أحمد باي، فقد تخصص الأول في مجال السياسة وله رسالة إخوانية سبق الحديث عنها بعث بها إلى شيخه سيدي علي بن محمد، تشهد بجمال اللغة وروعة الأسلوب، إذ غنيّ بهما كثيرا، فجاءت رسالته مرصعة بجواهر البديع خاصة السجع، وبمختلف أساليب البيان، ينم أسلوبها عن تمكن من ناصية اللغة وأساليبها، رغم بعض الضعف الذي شهدته خاصة في القصيدة التي رافقتها. أما (أحمد باي) فقد عُرف بالرسائل السياسية، التي بعث بها إلى الباب العالي في تركيا بداية الاحتلال الفرنسي، عندما كان واليا على الشرق الجزائري "تعالج موضوع الاحتلال، وطلب النجدة من تركيا لإنقاذ الجزائر، وتعكس الحالة التي كانت عليها البلاد"⁴²، تتميز بنفس خصائص الرسالة السياسية عند الأمير ما عدا ميزة السداجة.

أما الأمير عبد القادر فقد كان توجهه في فن الترسل سياسيا فكان موضوع رسائله إما طلب هدنة أو الموافقة عليها، أو الحرب أو التهديد، لذا سميت برسائل (السلم والحرب) تبادلا مع قادة فرنسا، يضاف إلى تلك الرسائل رسالته العلمية الأدبية (ذكرى العاقل وتنبية الغافل). شهدت هذه المرحلة

إعادة بعث مستوى اللغة العربيّة الجيد فقد شهدنا سلامتها عند أحمد باي وجمالها وفنيتها عند كل من الأمير وحمدان خوجة، ولا بد هنا من الإشارة إلى سيطرة الرسائل الديوانيّة خاصة ما تعلّق بالجانب السياسي وموضوع السلم والحرب، مما يتناسب مع الظرف الذي عاشته الجزائر في تلك الفترة.

المرحلة الثانية: من منتصف القرن 19 إلى بداية القرن 20 (العهد الإصلاحية)

عادت اللغة إلى زمن الضعف والركاكة، وهو ما طبع به فن الرسائل في هذه الفترة، الذي تدهور أسلوبه، وينم ذلك عن واقع مر عاشته اللغة العربية إذ عجز الناس عن التعبير بها حتى في أبسط الأمور، نذكر من بين الذين كتبوا في هذه المرحلة: محمد الشاذلي القسنطيني (عالم وشاعر جزائري 1807-1877 عمل قاضيا في قسنطينة وكان صديقا للأمير)، ولأبي القاسم سعد الله دراسة حوله، كتب رسالة لأحد الضباط الفرنسيين هي بمثابة شكوى، كما كتب أبو القاسم بن سديرة مجموعة رسائل جمعها في كتيب صغير بعنوان (كتاب الطالب المبتدئ في تخرج الخط العربي، مطبعة جوردن، الجزائر، 1898). من بين أهم الخصائص الفنية للرسالة في هذه الفترة، الضعف اللغوي والركاكة والبعد عن الأسلوب الأدبي، يقول عنها الركيبي: "وهذه الرسائل في الواقع لا تدل على تفرّد أو أصالة، وليس في أسلوبها ما يدعونا إلى الوقوف عندها، فهي لا تسهم لا في الحفاظ على صياغة البيان العربي ولا في تطور النثر الجزائري الحديث"⁴³، أما محتواها فقد تعلق معظمه بالمشاكل والظروف الخاصة، فجلّها رسائل موجهة للإدارة للشكوى والتظلم مثلا. تنم رسائل هذه الفترة عن واقع العربية المر ومستواها المتدني وعن فوضى المجتمع الجزائري خلال الاحتلال ووضع السوء اجتماعيا واقتصاديا وفكريا...

المرحلة الثالثة: الفترة الإصلاحية

استعاد فن الترسل مجده مع رجال الفكر الإصلاحي وأدبائه الذين قفزوا به قفزة نحو الجودة الفنية، والاهتمام بقضايا العصر التي أضفت عليه نوعا من الخصوصية في هذه المرحلة. عادت اللغة إلى فصاحتها ونصاعة بياها وعدوبة ألفاظها ورونق أسلوبها بفضل كتاب كالششير الإبراهيمي، وابن باديس، والطيب العقبي ومحمد الصالح رمضان، ومحمد الغسييري... ولا يمكن أن ننكر هنا دور الإبراهيمي في هذا كله، يقول مرتاض: "عرف النثر الأدبي في الجزائر خلال هذه الفترة فن الرسائل، هذا الفن الذي ابتدأ خجولا متثاقلا، لم يكد يعدو كتابة الرسائل الشخصية العارضة، التي يعبر فيها

الكتاب عن حاجاتهم اليومية، ثم تطوّر طيباً إبان الحرب العالمية الثانية، حين أخرج الإبراهيمي رسالتين أدبيتين تعتبران مفخرة النشر الأدبي في الجزائر⁴⁴، ويقول عبد الله الركيبي من جهة أخرى متحدثاً عن تحسن أسلوب الرسالة في هذه الفترة " أمّا في ظل الحركة الإصلاحية فقد استعاد هذا الفن كثيراً من أصالته فيما يخص اللغة والعبارة، أما من حيث الأسلوب والطريقة فالواقع أن الرسائل أصبحت تحيل إلى الوضوح والدخول مباشرة في الموضوع"⁴⁵.

أمّا من حيث الموضوعات فإننا نجد ماله علاقة مباشرة بالدين نحو: رؤية هلالي شوال ورمضان، وكذلك الرسائل التي كتبها أصحابها ليطلبوا فيها إلى الفئات المتنازعة المتصارعة أن تكف عن الترشق بالكلام احتراماً لشهر رمضان، مثال ذلك ما كتبه ابن باديس في إحدى الرسائل الي كان يرسلها إلى أعضاء الجمعية على صفحات الشهاب: "...وبعد فالمرغوب منكم أن تقوموا بأنفسكم أنتم ومن معكم بالعناية برؤية هلال رمضان، وقد ثبت دخول شعبان بالثلاثاء؛ فتجب مراقبة الهلال ليلة الأربعاء الآتية، إذ هي ليلة الثلاثين فإذا رئي فليبادر بإعلام أقرب محكمة شرعية لديكم"⁴⁶. ويقول محمد بن بلقاسم في رسالة بعث بها إلى ابن باديس وطلب نشرها في الشهاب: "...نرجو من حضرتكم الكف عن جميع الخصام، وسيئ الكلام وفحشه وسوء الأدب، احتراماً لرمضان، ولو هدنة فقط..."⁴⁷. يرى مرتاض أن هذه الرسائل الدينية تفتقر إلى الجمال الأدبي، فهي كانت حسب رأيه "منعدمة الفائدة بالنسبة لما يلتزمه الباحث في الرسائل الأدبية، التي تملأ القلب والعاطفة والعقل جمالا ومتاعاً"⁴⁸. هذا إضافة إلى رسائل أخرى ذات موضوعات عامة وخاصة لا يمكن حصرها، كتلك التي تهتم بكل ما له علاقة بالتعليم والتربية والإصلاح وحالة الأدب ومحاربة الأمية والانحراف، والتي تدعو إلى النهوض والاستفاقة، إضافة إلى الموضوعات الإدارية.

المرحلة الرابعة: النصف الثاني من القرن العشرين

أكد أن الترسل كان موجوداً في هذه الفترة، فقد اعتمده الثوار للتواصل فيما بينهم، إلا أنه لخطورة الأمر في تلك الفترة كانت الرسائل تحرق أو تحبأ فلم تكن تخرج للناس أو تنشر، حتى بعد الاستقلال. يقول الركيبي: "وبلا شك فإن هناك رسائل تبادلها الثوار أثناء الحرب التحريرية، وهي ما زالت مجهولة لدينا، وحين تتاح الفرصة لنشرها والاطلاع عليها، فإنها مثل الخطب ستُنقل إلينا

تجارب مختلفة وأساليب متنوعة أيضاً، وأحداثاً مرت بها الثورة وسجلت وقائعها...⁴⁹، فالرسائل كغيرها من فنون الأدب المختلفة تعتبر جميعاً سجلاً للعصر الذي تمثله.

7. خاتمة:

توصلنا بعد هذا الطرح إلى ما يأتي:

- فن التّرسّل هو جزء هام من الأدب الجزائري ومن تاريخ الجزائر.
- كتب في هذا الفن قادة والعديد من رجال الفكر و الأدب و السياسة.
- كتب أعلام هذا الفن في الأنواع الثلاثة للرسالة (ديوانيّة، إخوانيّة، أدبيّة)
- يمكن تقسيم مسار فن الرسالة في الأدب الجزائري الحديث إلى أربعة مراحل أساسيّة بالنظر إلى اختلاف ظروف الجزائر في كلّ منها.

8. الهوامش:

- 1 - أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مادة (نثر)، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 1645.
- 2 - أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط، 1995 ص: 95.
- 3 - قيس كاظم الجنابي جماليات السرد العربي القديم من العنوان إلى الرؤيا، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص: 96.
- 4 - أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص: 113.
- 5 - قيس كاظم الجنابي، جماليات السرد العربي القديم، ص: 95.
- 6 - ينظر جامعة القدس العربية، فنون النثر العربي القديم، ص: 43.
- 7 - محمد ربيع، أمين أبو ليل، تاريخ الأدب العربي(1)، العصر العباسي الأول، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2009، ص: 218.
- 8 - المرجع نفسه، ص: 216.
- 9 - أمين أبو ليل، تاريخ الأدب العربي ج2، العصر العباسي الأول، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2009، ص: 223.
- 10 - عبد الجليل التميمي، ثلاث رسائل من أحمد باي إلى الباب العالي، مطبوعات كلية الآداب، جامعة الجزائر، ص: 22.
- 11 - المرجع نفسه، ص: 22.
- 12 - محمد ربيع، أمين أبو ليل، تاريخ الأدب العربي(1)، العصر العباسي الأول، ص: 215.
- 13 - قيس كاظم الجنابي، جماليات السرد العربي القديم، ص: 98.

- 14 - ينظر: جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم 5240، مكتبة فلسطين، للكتب المصورة، 2007.
<http://palstinebooks.blogspot.com>، ص: 43-56.
- 15 - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2010. ص: 372.
- 16 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 316.
- 17 - المرجع نفسه، ص: 318.
- 18 - نفسه، ص: 459.
- 19 - ينظر نفسه، ص: 320.
- 20 - محمد ربيع، أمين أبو ليل، تاريخ الأدب العربي(1)، العصر العباسي الأول، ص: 215.
- 21 - ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص: 310.
- 22 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 37.
- 23 - المرجع نفسه، ص: 39.
- 24 - نفسه، ص: 38.
- 25 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص: 312.
- 26 - المرجع نفسه، ص: 318.
- 27 - نفسه، ص: 314.
- 28 - نفسه، ص: 315.
- 29 - محمد البشير الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، (1940-1952)،
در الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص: 54.
- 30 - المرجع نفسه، ص: 56.
- 31 - نفسه، ص: 40، 41.
- 32 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص: 317.
- 33 - ينظر المرجع نفسه، ص: 317.
- 34 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 41.
- 35 - محمد الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، دار اليقظة العربية، دمشق سوريا، ط2،
ص: 262.
- 36 - المصدر نفسه، ص: 396.
- 37 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 44.
- 38 - المرجع نفسه، ص: 42.
- 39 - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص: 372.
- 40 - المرجع نفسه، ص: 373.
- 41 - الأمير عبد القادر، نقلا عن المرجع نفسه، ص: 373.
- 42 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 44. 254

- 43 - المرجع نفسه، ص: 46.
- 44 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص: 322.
- 45 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1830-1974، الدار العربية للكتاب، دط، 1983 ص: 46.
- 46 - ابن باديس، نقلا عن عبد الملك مرتاض، فنون النثر، ص: 308.
- 47 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص: 308.
- 48 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 49 - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 47.

9. قائمة المراجع:

1. أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مادة (نثر)، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت.
2. أمين أبو ليل، تاريخ الأدب العربي ج2 العصر العباسي الأول، مؤسسة الوراق، عمان الأردن، 2009.
3. أمين أبو ليل، محمد ربيع، تاريخ الأدب العربي(1)، العصر العباسي الأول، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2009.
4. عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث 1830-1974، الدار العربية للكتاب، دط، 1983.
5. عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
6. قدامة بن جعفر، نقد الشر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، د ط، 1995.
7. قيس كاظم الجنابي جماليات السرد العربي القديم من العنوان إلى الرؤيا، الدار المنهجية عمان، الأردن، ط1، 2015.
8. محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، تح: أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، (1940-1952)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
9. محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، تح: أحمد طالب الإبراهيمي، ج3، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
10. محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2010.
11. محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، دار اليقظة العربية، دمشق، سوريا، دط، 1964.

12. جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم 5240، مكتبة فلسطين، للكتب المصورة، 2007.
<http://palstinebooks.blogspot.com>